تَارِيخ اليمَامَة القَدِيم

يبحث هذا الكتاب في تاريخ الدولة السعودية ، منذ ظهورها في عهد محمد بن سعود ، وليس من اغراضنا تدارس تاريخ البلاد القديم ..

ولكننا نعرف ان التاريخ سلسلة ، تترابط حلقاتها وتتداعى ، واذا فقدت منها حلقة صعب على الانسان أن يفهم حلقاتها الباقيات ويستقصي اخبارها وحقائقها ..

لذلك راينا أن نقدم بين يدي هذا الجزء من كتابنا « توطئة » صغيرة ، نعرض فيها عرضا سريعا وجيزا ، تاريخ اليمامة القديم ، واما بقية مناطق المملكة ، كالحجاز وعسير ، مثلا ، فسنعرض لها متى تكلمنا عن العهد الذي انضمت فيه الى الدولة السعودية .

وسبب ابتدائنا بتاريخ اليمامة ، هو أن امارة الدرعية ـ منطلق الدعوة الوهابية ومهد الدولة السعودية الاولى ـ انما تأسست في هذا القسم من جزيرة العرب ، الذي كانوا يسمونه : « اليمامة » .

فما هي « الادوار » التاريخية التي مرت بها اليمامة ، قبل ان تقوم فيها الدولة العربية الاسلامية الصاعدة ؟

ذلك سؤال يرد على خاطر الرجل المثقف ، عند أول نظرة يلقيها على تاريخ نشوء الدولة السعودية ..

فاحببنا ان نضع له الجواب مختصرا ، ما أمكننا ذلك ..

غموض التاريخ العربي القديم

هل تمدنا الكشوف الأثرية بأخبار الماضي المجهول ؟

استطاع المؤرخون ، بفضل النقوش والآثار القديمة التي وجدت في اليمن والسواحل الجنوبية من جزيرة العرب وفي أماكن أخرى ، أن يضيفوا أشياء جديدة كبيرة القيمة الى ما كان معروفاً، قبل،من أخبار اليمن وعرب الجنوب،في العهود العريقة في القدم ، وأن يصححوا الكثير من الروايات السابقة أو يبطلوها .

وتاريخ اليمن كان ، فوق ذلك ، موضع عناية المؤرخين القدامى من الرومان واليونان ، لأن اليمن تحضرت قبل سائر بلاد الجزيرة العربية وكانت لها تجارة واسعة مع الشعوب الأوروبية، تصدر إليهم منتوجاتها المحلية وتستورد لهم أيضاً من الهند والصين ما يرغبون فيه ويقبلون على شرائه . وكان لليمن سمعة ثراء عريضة ، فطمع بخيراتها الرومان ، ولذلك جهزوا حملة لغزوها، سنة ٢٤ ، قبل الميلاد، قادها واليهم على مصر « ايليوس غالوس » ، ولكن الحملة المؤلفة من عشرة آلاف مقاتل أخفقت اخفاقاً كاملاً بسبب جهلها بالطرق والمسالك وقوة الطبيعة ، فعادت من حيث أتت ، بعد أن خلفت وراءها خسائر كبيرة في الأنفس والأموال .

ومهما يكن من أمر هذه الحملة فقد لفتت أنظار الرومان بقوة نحو اليمن وجعلت المؤرخين الرومان يولون تاريخ اليمن وجغرافيتها مزيداً من عنايتهم .

أما تاريخ نجد ، بل تاريخ الجزيرة العربية الوسطى والشمالية ، فلم يزل

مجهولا ، لأسباب كثيرة ، قد يكون من أبرزها :

أولا – أن هذه المناطق كانت أقل اتصالا بالشعوب الاخرى القديمة من اليمن .

ثانياً – ان انتقالها الى دور الحضارة وبناء المدن جاء متأخراً عن جاراتها الجنوبيات ، ولعلها لم تعن مثل عنايتهن بتخليد وقائعها وأيامها ، بنقشها على الحجر او غيره .

ثالثاً – لم تجر كشوف أثرية تذكر في هذه البلاد . بعد ...

وتقول دائرة المعارف الاسلامية « النسخة الانكليزية » إن «أورانيوس» ألف خمسة كتب عن بلاد العرب ، لو قدّر لها البقاء لعرفنا بها شيئاً عظيماً عن تاريخ العرب القدامى ، ولكنها ضاعت ، وبذلك انحصرت مصادر التاريخ العربي القديم بما حفظ من اخباره في « السجلات الاشورية » ، والنقوش والكتابات النبطية والعربية ، الى مـــا تناقلته الروايات العربية التي يصعب علينا التفريق بين حقائقها وأساطيرها ، على فقرها وهزالها ...

كشوف جديدة :

قام علماء أمريكان – ساعدت أكثرهم شركة أرامكو وقـــامت هي نفسها باستدعاء بعضهم للتنقيب عن الآثار – بكشوف أثرية في منـاطق النفط وأبعـد من ذلك قليلًا ، وما تزال هذه الكشوف المحدودة موضع دراسة العلماء المختصين .

جنة الله على الأرض

وقـــد أثبتت الدراسات الجيولوجية ، والكشوف الأثرية ، التي ظهرت حتى الآن ، أن الجزيرة العربيـــة كانت ، في الأزمان العريقة في القدم ، قطعة من الفردوس منثورة على وجه الأرض ، تغمرهـــا الأشجار والأزهار ، وتتدفق فيها العيون والأنهار ، ويتكاثر فيها الحيوان والطير ، ويجد فيها الانسان رزقه بأهون

سبب ، بينما كانت أوروبا ، في تلك العصور ، بلاداً ميتة، ترقد تحت طبقات كثيفة من الجليد الدائم ، كالذي يشاهد في أقاصي القطب الشمالي .

ثم أخذت الطبيعة تتحول ، بفعل القادر على كل شيء ، فأصبحت الجزيرة بلاداً جافة حارة ، وغاضت ينابيعها ونضبت أوديتها وعادت جنانها صحارى مقفرة .. وكأن الفردوس انتقل عنها الى أوروبا ، فاذا المناطق الأوربية الميتة تبعث حية ، تفيض بالنعم والخيرات ، والأنهار والبحيرات ، وترتدي حللا سندسية من العشب النضير ، وتقوم فيها الرياض والغابات العجيبة .

في العصر الحجري

اكتشفت في « الدوادمي » أدوات من الصوان ، كالفؤوس وغيرهـــا ، كان يستعملها السكان في العصر الحجري، واستدل بذلك على أن الجزيرة العربية كانت، في العصر الحجري الأول ، موطناً للصيادين ، كما اكتشفت في الربع الخالي أدوات ترجع الى العصر البرنزي [1] .

حضارة الجنوب والأنباط

وتدل الكشوف الأثرية التي جرت في « جاوان » و « ثاج » وغيرهما على أن حضارة عرب الجنوب وحضارة العرب الأنباط كانتا تتعاقبان أو تتلاقيان وتمتزجان في سواحل الخليج العربي وعلى أرض نجد واليمامة ، في القرن الخامس للميلاد وقبل ذلك ، ولكننا لا نستطيع منذ الآن أن نجزم بشيء .. ولا بد لنا من انتظار فترة من الوقت للتثبت من محتويات الكشوف الأثرية ..

---

١ – دائرة المعارف الاسلامية « الطبعة الانكليزية » .

اليمامة قبل الإسلام

طسم وجديس

لا نجد في كتب التاريخ العربية القديمة ، من أخبار اليمامة ، قبل الإسلام ، إلا شيئاً يسيراً ، نقل أكثره من روايات ابن الكلبي ، التي تغلب عليها الصبغة « الأسطورية » .

وسننقل الآن شيئاً مما وجدناه في هذه الكتب ، وإن كانت النفس لا تطمئن اليه ، مضيفين اليه ما وجدناه في المصادر الغربية ، ولعل الدراسات التاريخية والأثرية الجديدة تكشف لنا غداً ، إن شاء الله ، عما نجهله اليوم من أحوال اليمامة .

قالوا : كان اسم اليمامة قديماً : جوا ، والقرية ، والعروض ، وكانت منازل لـ« طسم » و « جديس »[1] . ويزعم القلقشندي أنها كانت لبني هزان من العرب البائدة ، ثم غلبهم عليها طسم ،و هم من العرب البائدة أيضاً ، وينسبون في الأزد ، من قبائل اليمن .

أما الدينوري ، فيقول ، في « الأخبار الطوال » إن « طسم » هو ابن ارم بن سام بن نوح ، و « جديس » أخوه ، وأنهما أتيا من بابل ، فسكن طسم عمان

---

(١) أنظر معجم البلدان لياقوت . ويقول الجاسر إن (جو) ليس اسم اليمامة ، والقرية اسم سدوس ، وعندنا أن اسم (جو) أطلق على اليمامة في الشعر ، واسم القرية أطلق أيضاً على اليمامة ، كما أطلق على سدوس ، والله أعلم .

والبحرين ونزل جديس اليمامة .

ويقول الهمداني في كتابه « صفة جزيرة العرب » : « كانت جديس تسكن الخضرمة ، وكانت طسم تسكن الخضراء » ، وهو يعني بالخضراء بلدة حجر ، وكلتا الخضرمة وحجر في اليمامة .

أسطورة اليمامة

عاشت قبائل طسم وجديس فترة من الزمان متحابة متعاونة في ظل ملك واحد ، ثم ثارت بينهم الحرب ، وكانت سبب دمار بلادهم وزوال دولتهم .

يروي لنا « ابن الكلبي » قصة هذه الحرب – ولعلها أسطورة قديمة – فيفيض عليها ما شاء من شاعريته وخياله ، فهي إن لم تكن تاريخاً ، عُدّت من روائع الفن القصصي عند العرب ![1]

(1) وخلاصتها : أنه كان لطسم ملك ظالم ، مستهتر ، لا يمسكه شيء عن هواه ، يدعى : « عمليق » .

قالوا : تنازع رجل وامرأة – وكانا من جديس – في مولود لهما أراد أبوه أن يأخذه ، فأبت عليه ذلك أمه ، فارتفعا إلى الملك عمليق ، وأدلى كل منهما بحجته ، فأمر الملك بالغلام أن يقبض منهما ويجعل في غلمانه ! ...

فقالت المرأة ، وكان اسمها هزيلة :

« أتينا أخا طسم ليحكم بيننا   فأظهر حكماً في « هزيلة » ظالما !
لعمري لقد حكمت لا متورعا   ولا كنت فيما يلزم الحكم حاكما »

فبلغت أبياتها الى عمليق ، فنقم على نساء جديس كلهن ، وأمر أن لا تزوج بكر من جديس حتى تدخل عليه ، فلقوا من ذلك هولاً وذلا .. حتى تزوجت « عفيرة » ، فحملوها ، قبل أن يدخلوها على زوجها ، الى الملك عمليق ، فامتنعت عليه ، فوجأها بحديدة في أسفل بطنها ، وخرجت والدم يسيل منها ، فمرت بأخيها سيد جديس ، وهو في جمع من قومه ، وأنشدت ، وهي تبكي :

« لا أحد أذل من جديس   أهكذا يفعل بالعروس ؟ »

ثم قالت تخاطب قومها :

« أيجمل أن يؤتى الى فتياتكم — وأنتم رجال فيكم عدد الرمل ؟
فلو أننا كنا رجالاً وكنتمُ — نساءً لكنا لا نقر على الذل
فموتوا كراماً أو أميتوا عدوكم — وكونوا كنارشب بالحطب الجزل»

قالوا : ثم دعا « الأسود » ، أخو عفيرة ، الملك عمليق وأشراف قومه الى مأدبة ، فلما حضروا وأكلوا ، وثب الأسود على الملك عمليق فقتله ، ووثب رجال جديس على ضيوفهم فقتلوهم ..

.. وفر رجل من طسم ، يقال له ، « رياح » ، الى الملك « حسان » الحميري ، يستغيث به فلقيه في نجران ، وقيل بمكة ، فأغاثه ، وزحف حسان بجيش كبير الى جو .. ، فلما كان على مقربة ليلة من جو ، عند جبل هناك ، قال له رياح : توقف أيها الملك : فان لي أختاً متزوجة في جديس ، يقال لها اليامة ، وهي أبصر خلق الله على بعد ، فانها ترى الشخص من مسيرة يوم وليلة ، وإني أخاف أن ترانا وتنذر بنا القوم !

فأمر الملك رجلا أن يصعد الجبل فينظر ما يرى ، فلما صعد الجبل دخلت شوكة في رجله فأكبّ عليها يستخرجها ، فأبصرته اليامة ، وأنذرت قومها ، فلم يصدقوها [1] ..

ثم أمر الملك أصحابه أن يقطعوا من الشجر أغصاناً ويتستروا بها ، ليشبّهوا على اليامة ، كما أمرهم أن يكون مسيرهم ليلًا .. فقطعوا الشجر ، وأخذ كل رجل بيده

---

١ – وفي ذلك يقول الشاعر الأعشى :

« اذ أبصرت نظرة ليست بفاحشة — اذ رفع الآل رأس الكلب فارتفعا
قالت أرى رجلا في كفه كتف — او يخصف النعل لهفا أية صنعا !
فكذبوها بما قالت فصبحهم — ذو آل حسان يزجي السمر والسلعا »

وهناك إمرأة أخرى عرفت بحدة البصر ، في الجاهلية ، وهي حذام ، وفيها يقول الشاعر :

« اذا قالت حذام فصدقوها — فان القول ما قالت حذام . »

غصناً حتى إذا دنوا من « جو » نظرت اليمامة ، فقالت :

إني أرى شجراً من خلفها بشر لأمرٍ اجتمع الأقوام والشجر !..

ولم يصدقها قومها هذه المرة أيضاً ... وصبحتهم خيل حمـــير ، واستولوا على البلد ، وأمر الملك باليمامة أن تقلع عيناها وتصلب على باب « جو » ، ثم بدا له فأمر أن تسمى البلدة : « اليمامة » .

قالوا : « وخربت اليمامة من يومئذ ، وبقيت خراباً حتى جاءها بنو حنيفة » .

*

ذلك تاريخ اليمامة القديم ، كما تقصه علينا كتب التـاريخ والأدب العربي ، وهو ، كما قلنا ، أشبه بالأساطير . ويحددون زوال ملك طسم بالقرن الخامس للميلاد .

قلاع اليمامة وقصورها :

في كتب الأدب والتاريخ القديمة ذكر لبعض قلاع اليمامة وقصورها ، في عهد طسم وجديس ، ولعل الكشوف الأثرية ، في المستقبل ، تظهر لنا من أخبـــارها ما نجهله .

وقد ذكر « ياقوت » من هذه القـلاع والقصور : الشموس والمشقر والمعنق ، قال :

الشموس ، من أجود قصور اليمامة ، يقال إنه من بناء جديس وهو محكم البناء .

معنق ، قصر عبيد بن ثعلبة بحجر اليمامة ، وهو أشهر قصور اليمامة ، يقال إنه من بناء طسم ، وهو على أكمة مرتفعة وفيه وفي الشموس يقول الشاعر :

أبت شرفات من شموس ومعنق لدى القصر منا أن تضام وتضهدا

المشقّر ، كأنه مأخوذ من الشقرة وهي الحمرة ، أو من الشقر وهي شقائق النعمان .

قال ابن الفقيه : هو حصن بين نجران والبحرين ، يقال انه من بناء طسم وهو على تلّ عال ، ويقابله حصن بني سدوس ، ويقال انه من بناء سليمان بن داود عليهما السلام .

وقال غيره : المشقر حصر البحرين ، عظيم ، لعبد القيس .. قال الشاعر :

(تركت قريشا أن أجاور فيهم   وجاورت عبد القيس أهل المشقّر)

ويقول جرجي زيدان :

« من أشهر مدن طسم وجديس : القرية في اليمامة ، ويقال لها خضراء حجر ، وهي حاضرة طسم وجديس ، فيها آثارهم وحصونهم وبتلهم ، الواحد بتيل ، وهو بناء مربع مثل الصومعة ، مستطيل في السماء ، من طين ، وقد رآه المسلمون في القرن الثالث أو الرابع ، وذكر أحدهم أنه أدرك بتيلا طوله (٥٠٠) ذراع ، ولعل زرقاء اليمامة نظرت جيش تبّع من أحدها .

وفي اليمامة بلد إسمه (جعدة) فيه قصر يعبرون عنه بالعادي، لقدمه، ويذكرون أنه من بناء طسم وجديس وأنه حصن منيع .[١]

---

(١) جعدة إسم رجل لا إسم بلد، وكانت البلدة مقراً له، فيصح القول إنها بلد (جعدة)!

عنزة وحنيفة

قال الدينوري ، في « الاخبار الطوال » :

(بقيت اليمامة والبحرين ، بعد مقتل جديس ، ليس بها احد ، الى أن كثرت ربيعة وانتشرت وتفرقت في البلاد ، فسارت عنزة بن أسد بن ربيعة تتبع مواقع الغيث ، وتقدمها عبد العزي بن عمرو العنزي ، حتى هجم على (اليمامة) ، فراى بلادا واسعة ونخلا وقصورا .. فاقام (في اليمامة) أياما ، ثم تبرم بمكانه ، فمضى سائرا حتى سقط الى البحرين ، فراى بلادا اوسع من اليمامة ، وبها من ولد كهلان حين هربوا من سيل العرم ، فاقام معهم .) .

ويقول ياقوت ، في معجم البلدان : « خرجت بنوحنيفة ... يتتبعون الريف ويرتادون الكلا ، حتى قاربوا اليمامة ، فخرج عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدول بن حنيفة ، منتجعا باهله وماله يتتبع مواقع القطر ، حتى هجم على اليمامة ، فنزل موضعا يقال له : (قارات الحبل) ، وهو من« حجر » على يوم وليلة ، فاقام به اياما .. فخرج راعي عبيد حتى اتى قاع حجر ، فراى قصورا ونخلا وأرضا ، وعرف أن بها شانا ، وهي التي كانت لطسم وجديس فبادوا .. فرجع الراعي حتى أتى عبيدا ، فقال :

والله اني رايت آطاما طوالا ، واشجارا حسانا ، هذا حملها ..

واتى بالتمر معه ، مما وجده منتثرا تحت النخل ، فتناول منه عبيد واكل ، فقال :

ـ هذا والله طعام طيب !

واصبح ، فامر بجزور ان تنحر ، ثم قال لبنيه وغلمانه : احترزوا حتى آتيكم .

وركب فرسه ، واردف الغلام خلفه ، واخذ رمحه ، حتى أتى حجرا ، فلما رآها لم يحل عنها ، وعرف انها أرض لها شان ، فوضع رمحه في الارض ، ثم دفع الفرس ، واحتجر ثلاثين قصرا وثلاثين حديقة ، وسماها (حِجرا) ، وكانت تسمى اليمامة .. ثم ركز رمحه في وسطها ، ورجع الى اهله ، فاحتملهم حتى انزلهم بها ..

وتسامعت بنو حنيفة ، ومن كان معهم من بني بكر بن وائل ، بما أصاب عبيد .. فاقبلوا فنزلوا قرى اليمامة . » .

دولة عربية نبطية
في القرن الرابع بعد الميلاد

يقول ابن الكلبي : إن ملك حمير أزال دولة طسم وأقام مكانها دولة كندة . ولكن يبدو أن بلاد اليمامة ونجد خضعت، قبل استيلاء الكنديين عليها، إلى ملك عربي كبير، هو : « امرؤ القيس بن عمرو » الذي امتدت مملكته من نجد واليمامة إلى نجران إلى تخوم الشام، كما ثبت ذلك بكتابة نبطية، جليلة القيمة، وجدت على قبر امرىء القيس بن عمرو، بالقرب من حصن النمارة، من الشام، وهذه صورتها « الفوطوغرافية » :

1. תי נפש מראלקיש בר עמרו מלך אל-ערב כלה דו אשר אל-תג
2. ומלך אל·אשדין ונזרו ומלוכהם והרב מדחגו עכדי ונא
3. בזגי (?) פי הבג נגרן מדינת שמר ומלך מעדו ונזל בניה
4. אל-שעוב ווכלה לפרש ולרום פלם יבלע מלך מבלעה
5. עכדי הלך שנת 200 + 20 + 8 יום 7 בכשלול בלשעד [ד]ו ולדה

ترجمة النص

وقد قام الآثاريون بترجمة هذا النقش إلى اللغة الافرنسية، ونشر « دوسو » النص والترجمة في كتابه : « العرب في الشام قبل الاسلام »، وهذا تعريبه :

« ١ ــ هــذا هو قبر امرىء القيس بن عمــرو، ملك جميع العرب، ذلك الذي كلل بالتاج .

٢ ــ ذلك الذي أخضع قبيلتي أسد وقبيلة نزار وملوكها، هذا الذي شتّت

شمل مذحج حتى يومنا هذا ، ونال

٣ ــ نجاحاً في حصار نجران ، مدينة شمر ، ذلك الذي أخضع قبيلة معدّ ، ذلك الذي ولّى أولاده .

٤ ــ على القبائل ، وندبهم لدى الفرس والرومان . لم يصل ملك إلى مجده.

٥ ــ حتى يومنا هذا . ومات عام « ٢٢٣ » في السابع من كسلول . لتنعم ذريته بالسعادة . »

ويقول « درسو » ، اعتماداً على هذا النقش وعلى روايات تاريخية أخرى ، إن أمرأ القيس بن عمرو ، كان ملكاً عربياً ، من الأنباط ، ألّف دولة عربية كبيرة ، في أوائل القرن الرابع للميلاد ، تضم تحت رايتها عرب الشام ونجد وتمتد إلى حدود اليمن ، وقد رأّس كل ولد من أولاده على قبيلة من القبائل العربية الخاضعة لسلطانه ، واستطاع الظفر برضاء الدولتين المتنافستين ، فارس وبيزنطة ، لأن الفرس هم الذين كللوه بالتاج ، والعرب لا يعرفون ذلك ، ومع هذا رضي عنه الرومان وقبلوا سيادته ورئاسة أولاده على القبائل المقيمة في أراضي الشام ، التي كانوا يسيطرون عليها !

أما وصفه ، في النقش، بأنه ملك جميع العرب ، ففيه مبالغة ظاهرة، والمقصود هو أنه ملك عرب الحيرة ، ونجد ، والشام .

ولا يسعنا ، على كل حال ، أمام هذا الكشف الأثري ، الذي يثبت لنا قيام دولة عربية في نجد في القرن الرابع ، إلا أن نعيد النظر في رواية ابن الكلبي ..

وقد يكون التفسير المعقول لما حدث في اليمامة ، في نهاية ملك طسم ، هو أن جنود حمير و كندة غزت بلاد اليمامة ونجد ، في طريقها الى الحيرة ، ولكنها لم تؤسس دولة هناك فور هزيمة (طسم) ، وإنما تأسست الدولة بعد ذلك بفترة من الزمن .

وربما انتهزت القبائل العدنانية فرصة انهيار ملك طسم ، فتغلغلت في بلاد اليمامة ونجد أكثر فأكثر ..

ومهما يكن الأمر ، فكان نجد واليمامة ، الذين تولى عليهم ملوك كندة لم يكونوا رجال طسم المهاجرين من اليمن، وإنما كانوا عرباً من ربيعة ومضر ..

مملكة كندة

نشأت مملكة كندة في نجد واليمامة ، بمؤازرة الدولة الحميرية اليمنية ، ولذلك كان ملوك كندة حلفاء طبيعيين لليمن .

ويقول « حتي » إن رؤساء كندة هم أول من تلقب من حكام العرب بلقب « الملك » ، فقد « جرى العرب عادة على اطلاق هذا اللقب على الملوك الأجانب »[1] .

وكانت الدول العربية الشمالية في عصر كندة ، هي :

١ – دولة الغساسنة ، في الشام .

٢ – دولة اللخميين ، في العراق .

٣ – دولة الكنديين ، في اليمامة ونجد .

وكان ولاء كندة لحمير ، وولاء الغساسنة للرومان « البيزنطيين » ، وولاء اللخميين في الحيرة لفارس ، وكانت هذه الدول تتنافس وتتحارب .. ولم تكن مستعمرات أو محميات ، ولكن ظروفها كانت تستوجب منها في بعض الأحيان محالفة الدول الكبيرة ، والقتال معها ، وقد تثور عليها متى سنحت لها الفرصة .

أما دولة كندة ، فبقيت حتى النهاية على ولائها لليمن ، لصلات القربى التي تصل بينهما ، فهما شعب واحد .

ومما يلاحظ أن هذه الدول الثلاث « الغسانية واللخمية والكندية » التي تأسست

---

١ – فيليب حتي : تاريخ العرب (المطول) .

في الجزء الشمالي من جزيرة العرب الذي نعتبره موطناً للعرب العدانية ، كانت كلها « قحطانية » ، كما يزعم المؤرخون والنسابون . ويتشكك الكاتب جرجي زيدان في « قحطانية » هذه الدول ، لأن لغتها عدنانية لا حميرية ..

مؤسس مملكة كندة

كانت عشائر كندة ، تقيم في حضرموت ، وقصبتهم فيها : بلدة « دمون » ، ويزعم بعض المؤرخين ان أصل كندة من البحرين ، ولكنها أجليت عنها الى حضرموت ، وكان عدد رجالها ثلاثين ألف نفس . وقيل إن كندة اضطرت الى النزوح عن حضرموت اضطراراً، بعد هزيمتها في المعارك مع عشائر حضرموت، فهاجرت الى الشمال ونزلت في مكان من الجنوب الغربي من نجد يعرف باسم « غمر ذي كندة » .[1]

وفي القرن الخامس للميلاد غزا تبع اليمن « حسان » بلاد الحيرة وحلفاءها في نجد واليمامة ، فغزت معه عشائر كندة ، وكتب له النصر ، فأقام رئيس كندة ، واسمه « حجر آكل المرار » رئيساً على عشائر اليمامة ونجد كلها ولقبه بلقب الملك ، وكان حجر أخاً لحسان من أمه ، وخادماً مخلصاً له ، وبذلك نشأت « مملكة كندة » .

وقيل إن عشائر اليمامة ونجد هي التي أرسلت وفداً منها الى اليمن وطلبت من حسان ، ملك اليمن أن يولي عليها حاكماً من قبله ، فاستجاب لطلبها ، وملك عليهم أخاه « آكل المرار » ، لقب بذلك « لكشر كان فيه » ، كأنه أكل من العشب المر ، الذي تتقلص له ، عادةً ، مشافر الابل .[2]

ويقول جرجي زيدان ، ملخصاً بعض الروايات العربية ، إن سفهاء بكر بن وائل « غلبوا على عقلائها ، وغلبوهم على الأمر ، وأكل القوي الضعيف ، فنظر العقلاء في أمورهم فرأوا أن يملكوا عليهم ملكاً يأخذ للضعيف من القوي ، ورأوا

---

١ - دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الانكليزية)

٢ - فيليب حتي : تاريخ العرب .

مع ذلك أن هذا لا يستقيم بأن يكون الملك منهم إذ يطيعه قوم ويخالفه آخرون، فأجمعوا على أن يسيروا الى تبع اليمن « حسان » ، وكان التبابعة للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين ، وطلبوا إليه أن يولي عليهم ملكاً ، وكان « حجر » المذكور ذا رأي ووجاهة فولاّه عليهم ..

فقدم حجر الى نجد ونزل « بطن عاقل » ، وكان اللخميون قد ملكو كثيراً من بلاد نجد ، ولا سيما بلاد بكر بن وائل ، فنهض حجر بهم وحارب اللخميين وأنقذ أرض بكر منهم ، فأجمعت كلمة العرب على احترامه » .

ولا يستبعد العقل أن تكون قبائل كندة هي التي استدعت العرب اليمانية لنجدتها ضد دولة الحيرة وحليفاتها في نجد .

ملوك كندة

حجر آكل المرار

كان حجر آكل المرار أول ملوك كندة ، ويقول « القرماني » في تاريخه :

« ذكر صاحب البحر الزخار أن أول ملوكهم : « حجر »، بضم الحاء المهملة، وهو من أولاد سبأ ، وكانت كندة قبل أن يملك حجر عليهم ، بغير مَلِك ، فأكل القوي الضعيف ، فلما مَلَكَ حجر سدّدَ أمورهم وساسهم ، وانتزع من اللخميين ما كان بأيديهم من أرض بكر بن وائل أحسن العشائر والقبائل » .

عمرو بن حجر

خلف حجراً ، بعد موته ، ابنه « عمرو » وكان لقبه : « المقصور » ولم يطل ملكه ، فقد قتله الحارث بن أبي شمر الغساني . ويقول صاحب « الأغاني » إنه كان لعمرو أخ يدعى « معاوية » ، ولاّه على « اليمامة » .

الحارث بن عمرو

خلف الحارث أباه عمراً ، بعد مصرعه .

ووجدنا في المعجم الكنسي ، الذي يبحث في تاريخ الكنائس المسيحية في كل بلاد العالم ، أن « الحارث بن عمرو » كان وثنيـــاً شديد التعصب لوثنيته ، وأنه اكتسح فلسطين عام ٤٩٧ م . وعذب كثيراً من المسيحيين فيها .

وفي عام ٥٠٢ م . عقد البيزنطيون صلحاً معه ، وقعه الحارث وأفراسيون ، نيابةً عن الأمبراطور انسطاس ، ولما أمن الحارث جانب الرومان ، انصرف الى محاربة المنذر ، وحلّ في عرش الحيرة محله ، ولكن فتنة نشبت في بعض قبائله في فلسطين اضطرته الى مغادرة الحيرة والعودة الى فلسطين ، فلحق به المنذر وتغلب عليه ، ويقال إن جماعة من بني كلب هم الذين قتلوا الحارث .

ويقول القرماني: لما عاد المنذر إلى ملك أبيه زمن « أنوشروان» ،هرب الحارث الى ديار بكر ، ثم فرق البلاد التي بقيت في ملكه بين أولاده .

ويقول مؤلف « الأغاني » إن الأشراف من قبائل ربيعة ومضر ، جاؤوا الى الحارث ، وقالوا له : « إنّا في دينك ، ونحن نخاف أن نتفانى، فيما يحدث بيننا، فوجه معنا بنيك ينزلون فينا ، فيكفون بعضنا عن بعض » .

فملك ابنه حجر ، على بني أسد بن خزيمة ،
وملك ابنه شراحيل ، على بكر بن وائل ،
وملك ابنه مسلمة ، على تغلب .
وملك ابنه معدي كرب ، على قيس عيلان .

زوال مملكة كندة ، وكانت : أول محاولة لتوحيد القبائل

يقول المؤرخ الكبير « حتي » إن أبناء الحارث اختلفوا فيما بينهم ، فكان ذلك سبب زوال ملك كندة، لأن كل واحد منهم كان يتزعم قبيلة، فأدى خلافهم «الى انحلال وحدة كندة وتلاشي الدولة ... أما الباقون من أبناء كندة فرجعوا الى

منازلهم بحضرموت،وبذلك انقرضت معالم دولة نشطت الى مناظرة الحيرة، فكانت هي وغسان الدولتين اللتين نازعتا الحيرة البقاء ...

.. ولا تنحصر أهمية كندة فيما أتى به أبناؤها من الأعمال، وما حازوه من مجد وسؤدد، ولكن بما لها من الفخار العائد الى كونها تمثل أول محاولة قام بهـا عرب الجزيرة الوسطى ، بجمع شمـل القبائل تحت زعامة واحدة مركزية يتولاها سيد واحـد ، فكانت محاولتها من هـذه الناحية سابقة أفاد منها أهـل الحجاز والنبي محمد ».

حجر بن الحارث وابنه امرؤ القيس

كان حجر ، أعظم أولاد الحارث وأكثرهم شهرة بين القبائل .

ويقول المعجم الكنسي إن حجراً حارب القائد الروماني « رومانوس » فانتصر عليه القائد الروماني وأسره ، كما أسر أخاه معدي كرب ..

وفي كتب الأدب أن حجراً فرض على بني أسد إتاوة ثقيلة، وأرسل اليهم جباته ليحصلوها، فامتنعوا عن أدائها لهم، وضربوهم ومثلوا بهم، فسار اليهم حجر في كتيبة من جنده وأخذ يقتلهم بالعصا ، فسموهم : « عبيد العصا ».

ثم هدأت الأمور ، بعـد وساطة الشاعر عبيد بن الأبرص ، ولكن كاهـن بني أسد أبى إلا تحريض قومه على حجر ، ففاجأوه وهو في قبته وقتلوه ! وبموته زالت مملكة كندة .

وكان مقدراً لابن حجر : امرىء القيس ، الشاعر الجاهلي الكبير ، الذي لقبوه بالملك الضليل ، أن يتولى الملك بعد أبيه ، ولكن بني أسد ، الذين كان يرجى أن يكون ملكاً عليهم ، أصبحوا أعداء له .. فحاربهم وفعل بهم الأفاعيل ولكنه لم يملكهم ، ثم قتل المنذر إخوته ، وأراد قتل امرىء القيس نفسه فهرب إلى الروم ، ومات من قروح انتشرت في بدنه .

العرب والفرس

ربيعة ومضر

لم تنفرد ربيعة بسكنى اليامة وما حولها ، وإنما كانت تجاورها في مساكنها، أو تقاسمها بعضها ، قبائل من مضر ، كتميم وقيس عيلان .

انتشرت ربيعة بفرعيها الكبيرين : بكر بن وائل وتغلب بن وائل ، الى البحرين والعراق والشام وغيرها ، ولكن بقيت بطون وجماعات منهم كبيرة في اليامة ونجد ، وخصوصاً « بني حنيفة »، فقد استقروا كلهم في اليامة ولم يرحل أحد منهم الى غيرها .

وأما مضر فقد انتشرت قبائلها ، هي أيضاً ، من اليامة الى غيرها من البلاد ، ولكننا نستطيع القول ان تميم – وهي أعظم تلك القبائل المضرية – لم تهاجر بقضها وقضيضها ، كما فعلت تغلب ، وإنما بقيت منها في اليامة ونجد أعداد ضخمة تساوي بني حنيفة أو تفوقهم .

و « بنو حنيفة »، و « بنو تميم » هما ، على كل حال ، أعظم القبائل العدنانية في اليامة ، وتمثلان فيها ربيعة ومضر ، وإن كانتا لا تنفردان بذلك ، ففي اليامة قبائل أخرى عدنانية ، وهناك أيضاً قبائل قحطانية ، ولكنها لم تكن ذات شأن في اليامة عند ظهور الاسلام .

قبائل العرب والفرس

كانت القبائل العربية في اليمامة ونجد ، وفي سائر البلاد التي انتشرت اليها ، ما عدا الشام ، موالية للفرس وللدول العربية المتحالفة معهم . وذلك ، طبعاً ، بعد زوال مملكة كندة ، الموالية لحمير .

استخدم ملوك لخم ، وخصوصاً النعمان بن المنذر ، في جيوشهم رجالاً من بكر ابن وائل وغيرهم من العرب، وكانت عنده كتيبة منهم ، يقال لها : « الصنائع ».

وقعة ذي قار .. ترفع سيطرة الفرس !

اصطدمت قبائل بكر بن وائل بالفرس مرتين : مرة في عهد شابور ، ومرة بعد البعثة النبوية ، في معركة مشهورة عرفت باسم : « وقعة ذي قار » أو « يوم ذي قار » .

لم تشترك حنيفة في هذه المعركة ، لانقطاعها عن قومها في اليمامة ، بل قيل ان حنيفة كانت معتزلة عن بكر بن وائل ، لا تنصرهم ولا ينصرونها .

واشترك في صفوف الفرس مقاتلة من تميم ومن اياد ، ولكنهم انسحبوا عند التحام المعركة .

ويقول الطبري ان سبب المعركة أن كسرى قتل النعمان ، وكانت حلقة النعمان عند بعض بكر بن وائل ، فطلبها كسرى فأبوا أن يسلموها اليه ، فعزم كسرى على استئصال شأفة بكر بن وائل فأشاروا عليه أن يفجأهم عند ذي قار ، لأنهم في القيظ يتساقطون على ماء ذي قار تساقط الفراش في النار ..

وهكذا أقبل الفرس ومعهم الفيول ..

وتوزعت بكر فيما بينها حلقة النعمان – يعني أسلحته – وحملوا حملة صادقة ، وتقدمت « عجل » ، وأبلت بلاء حسناء ، وكانت امرأة منهم تقول ، تحض الرجال :

إن تهزموا نعانقْ ونفرش النمارق
أو تهربوا نفارق فراق غير وامق .

ثم أرسلت « اياد » ، وكانوا في صف كسرى ، سراً الى بكر : أيها أعجب

إليكم ، أن نفرّ تحت ليلتنا فنذهب ، أم نقيم ثم نفر متى لاقيتم القوم ؟

قالوا : بل تقيمون ، فاذا التقى القوم انهزمتم بهم ..

وعند اللقاء ، انهزمت اياد ، كما وعدتهم » .

النبي (ص) يدعو لربيعة

كانت معركة ذي قار معركة رهيبة ، تخوضها قبيلة عربية بدوية ، ضد دولة الفرس الأكاسرة ، التي كانت من دول العالم المعدودة

وشاء الله سبحانه أن تنتصر القبيلة على الدولة. ولعل ذلك كان بشيراً بانتصار الإسلام ، فيما بعد ، على دولتي الفرس والروم .

روي أن النبي محمد (ص) ، مثلت له وقعة ذي قار ، وهو بالمدينة ، فقال :

« اليوم انتصفت العرب من العجم » ، وفي رواية : « وبي نُصِروا » .

وقيل إنه (ص) رفع يديه إلى السماء ، وقال :

« ليهن بني ربيعة . اللهم انصر بني ربيعة » .

ويزعم صاحب « الأغاني » ان بني ربيعة كانوا اذا حاربوا دعوا بشعار النبي (ص) ودعائه لهم ، وقال قائلهم : « يا رسول الله وعدك » !

وقد خلد الشعراء ذكر يوم ذي قار ، فقال الأعشى ، من قصيدة :

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي ... وراكبها يوم اللقاء وقلّت

همُ ضربوا بالحنو حنو قراقر ... مقدمة الهامرز حتى تولت

ديانة العرب

وكان في اليمامة ، في عهد طسم وجديس : « بتل » ، جمع بتيل ، أو بيت ايل ، أي بيت الله ، وكانوا يتجهون اليه بالعبادة ، ويقول الهمداني ، عند كلامه على القرية الخضراء ، يعني حجر اليمامة ، التي قامت الرياض على أرضها :

« هي حضور طسم وجديس ، وفيها آثارهم وبتلهم - جمع بتيل ، وهوهنّ مربع مثل الصومعة ، مستطيل في السماء من طين .

قال أبو مالك : لحقتُ منها بناء طوله مائتا ذراع في السماء ، وقيل كان منها ما

طوله خمسمائة ذراع » .

وبعد فناء طسم وجديس ، بقيت الديانة المتفشية في اليمامة ونجد ، بين القبائل العربية النازلة بها : الوثنية ، ديانة سائر العرب .

وكان فيهم عدد قليل من النصارى ، ويقول المعجم الكنسي : ان الدعـوة المسيحية لم تلقَ أذناً صاغية في جزيرة العرب ، باستثناء نجد ، فقد تسربت اليها المسيحية في القرن السادس للميلاد .

وكانت قبائل تغلب بن وائل أكثر قبائل العرب نصارى .

ويقول صاعد الأندلسي ، نقلاً عن ابن قتيبة : كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة .. وكانت المجوسية في تميم .

ويقال ان قبائل تميم عبدت : « الدبران » ، وان اياد وبكر بن وائل عبدتا صنماً اسمه : « ذو الكعبين » و « كعبة سنداد » . [1]

وقيل انه كان لبني حنيفة صنم يعبدونه من حيس – أي من تمر – فلحقهم في بعض السنين مجاعة فأكلوه ، فقال الشاعر :

أكلت حنيفة ربهـا عـام التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة

وأكبر الظن أن هذا ضرب من التندر وأن شأن حنيفة كان كشأن قبائل ربيعة الأخرى ، في عبادة الأوثان .

وعبادة العرب للأوثان لا تعني ، على كل حال ، أنهم لم يكونوا يعبدون الله تعالى ، فقد كان جميع عبدة الأوثان من العرب ، كما يقول صاعد ، (موحدة لله تعالى ، وإنما كانت عبادتهم لها ضرباً من التدين بدين الصابئة ، في تعظيم الكواكب والأصنام الممثلة بها في الهياكل ، لا على ما يعتقده الجهـال بديانات الأمم وآراء الفرق من أن عبدة الأوثان ترى الأوثان هي الخالقة للعالم ، ودليل ذلك قوله تعالى: « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .)

---

١ – قسم صاعد الاندلسي عبادة الكواكب بين القبائل العربية .. فقال : « كانت حمير تعبد الشمس ، وكنانة القمر ، وتميم الدبران ، ولخم وجذام المشتري ، وطيء سهيلا ، وقيس الشعرى ، وأسد عطارد . »

اليمامة في الإسلام

كانت صلات بني حنيفة بالفرس حسنة ، حتى أن كسرى توج «هوذة بن علي» من رؤسائهم ملكاً ، وكان مقره في موضع الخضرمة أو اليمامة في الخرج .

وكان في اليمامة ، بالمعنى الواسع ، زعيم آخر ، يدعى : « ثمامة بن أثال » ، وكان مقره في بلدة « حجر »[1] – أي « الرياض » اليوم .

وتذكر لنا كتب السيرة والتاريخ أن النبي محمد (ص) أرسل إلى هوذة بن علي كتاباً يعرض فيه عليه الاسلام ، فأبى إلا إذا جعل له من الأمر شيء ..

أما ابن أثال فجاء الى مكة للعمرة ، فأسره المسلمون ، فعرض على النبي (ص) أن يفتدي نفسه بمال ، ولكن النبي مَنّ عليه وأطلقه بغير شيء ، فأسلم ، ورجع إلى بلاده ، فتابعه على الإسلام عدد من سكان القرى ، ثبتوا على إسلامهم معه الى النهاية .

وفود بني حنيفة

وفي عام الوفود ، جاءت الى النبي جماعات من بني حنيفة وغيرهم ، من اليمامة ونجد ، فأسلموا وعادوا إلى بلادهم .

---

١ – انظر مقالات العالم المحقق الاستاذ حمد الجاسر في جريدة « اليمامة » عن تاريخ مدينة الرياض .

مسيلمة الكذاب

كان بين وفود بني حنيفة الى النبي (ص) رجل منهم ، اسمه : مسلمة بن حبيب ، أسلم وبايع وعاد الى اليمامة ، ولكنه لم يكد يصلها ، حتى زعم لقومه أن النبي محمد (ص) قبل مشاركته في النبوة ، وشهد له على ذلك الرجال بن عنفوة ، الذي كان معه في الوفد ، وتبعه فريق من الناس خدعوا بـه أو تخادعوا له ، ونقول « تخادعوا » ، لأن بعضهم ما تابعوه إلا ليتخلصوا من دفع الزكاة ..

وربما مال اليه آخرون لمجرد أنه حنفي ، فقد روي عن طلحة النمري أنه جاء مسلمة ، فقال له : أنت مسلمة ؟ قال : نعم ! قال : من يأتيك ؟ قال : رحمان ! قال : في نور أم في ظلمة ؟ قال : في ظلمة .

قال : أشهد أنك كاذب ، وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر !

ويقال إنه كان لمسلمة مؤذن يدعى « حجيرا » ، فكان إذا أذن يقول : أشهد أن مسلمة يزعم أنه رسول الله .. فقال له مسلمة : أفصح حجير ! فذهبت مثلاً ..

لم يصب مسلمة نجاحاً كبيراً في حياة الرسول (ص) ، وقد حذر الرسول (ص) الناس منه وأسماه « مسيلمة » ، بصيغة التصغير تحقيراً له ، ونعته بـ « الكذاب » ، فصار يعرف باسم « مسيلمة الكذاب » ..

ومن الخطأ الظن أن بني حنيفة تابعوه كلهم ، بعد وفاة النبي محمد (ص) ، فقد ذكر الطبري وغيره أن العلاء بن الحضرمي ، لما ذهب الى قتال أهل الردة في البحرين ، انضم اليه « ثمامة بن أثال » ، في من معه من مسلمي بني حنيفة ، الذين ثبتوا على إسلامهم .

ويقول الألوسي في كتابه بلوغ الأرب ، إن مسيلمة أدعى النبوة قبل هجرة محمد (ص) الى المدينة ، « فما زال يخفى ويظهر ، ويقوى ويضعف ، وأهل اليمامة فرقتان : احداهما تعظمه وتؤمن به ، والأخرى تسخفه وتضحك منه ..

وكان يقول : أنا شريك محمد في النبوة ، وجبريل ينزل علي كما ينزل عليه ..

وكان يقول أيضاً : يا بني حنيفة ، مـا جعل الله قريشا أحق بالنبوة منكم ،

وبلادكم أوسع من بلادهم وسوادكم أكثر من سوادهم ؟!

ولما قدم النبي (ص) المدينة ، وجد الناس يتذاكرون مسلمة وما يبلغهم عنه من قوله وقول الناس فيه ، فقام يوما خطيبا ، فقال :

« أما بعد .. فهذا الرجل الذي تكثرون فيه فكذاب ، بثلاثين كذاباً قبل الدجال » .

فسماه المسلمون : مسيلمة الكذاب ، وأظهروا شتمه وعيبه وتصغيره ، وهو باليمامة ، يركب الصعب والذلول في تقوية أمره .. وكان يقرأ ما يزعم إنه وحي ، يريد به تقليد محمد (ص) مثل قوله : « والشمس وضحاها ، في ضوئها وجلاها ، والليل اذا عداها ، يطلبها ليغشاها » .

وكتب مسيلمة الى النبي (ص) كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فاني أشركت معك ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ، ولكن قريش قوم يعتدون ولا يعدلون » .

فأجابه الرسول (ص) : « سلام على من اتبع الهدى . أما بعد، فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين » [1] .

حروب الردّة

قويت شوكة مسيلمة ، بعد وفاة النبي (ص)، وتجمع حوله كثير من الناس كانوا يكرهون دفع الزكاة .

وكان أبو بكر قد اعتبر الامتناع عن دفع الزكاة ارتداداً عن الاسلام ، لأن الزكاة ركن من أركان الاسلام من جحده لم يعد مسلماً ، ووجب قتاله ، ولذلك جهز أبو بكر الجيوش وأرسلها إلى البلاد الممتنعة عن أداء الزكاة لقتالها ، وسميت الحروب التي جرت بين المسلمين وبين الممتنعين عن الزكاة : حروب الردّة. ومنها الحروب التي جرت في اليمامة بين المسلمين وأنصار مسيلمة الكذاب .

١ – كما ظهر في حنيفة مسيلمة ، ظهرت في تميم « سجاح » ، امرأة ادعت النبوة ، وظهر في أسد طليحة ولم يطل أمرهما .

الحرب بين المسلمين ومسيلمة

قال البلاذري ، في فتوح البلدان :

« ... لما توفي رسول الله (ص) واستخلف أبو بكر (ر) بعث خالد بن الوليد إلى اليمامة وأمره بمحاربة مسيلمة الكذاب ، فلما شارفها ظفر بقوم من بني حنيفة فيهم مجاعة بن مرارة بن سلمى ، فقتلهم واستبقى مجاعة ، وحمله معه موثقاً ...

وعسكر خالد على ميل من اليمامة ...

ثم التقى الناس ، فكان أول من لقيهم الرجال بن عنفوة ، فقتله الله ، واستشهد وجوه الناس وقراء القرآن ، ثم إن المسلمين فاءوا وثابوا ، فأنزل الله عليهم نصره ، وهزم أهل اليمامة ، فاتبعهم المسلمون يقتلونهم قتلاً ذريعاً ، وألجأوا الكفرة إلى الحديقة ، فسميت يومئذ : « حديقة الموت » ، وقتل الله مسيلمة في الحديقة .

فبنو عامر يقولون : قتله خداش ... من بني عامر .

وقال بعضهم : قتله عبدالله بن زيد .

وكان وحشي بن حرب الحبشي ، قاتل حمزة (ر) ، يدعي قتله ، ويقول : قتلت خير الناس وشر الناس .

وقال قوم : إن هؤلاء جميعاً شركوا في قتله ...

وكان معاوية بن أبي سفيان يدعي أنه قتله ، ويدعي ذلك له بنو أمية .

وقيل : كان شعار المسلمين يومئذ : « يا أصحاب البقرة » [1].

الصلح مع أهل اليمامة

قالوا : وكانت الحرب قد نهكت المسلمين وبلغت منهم ، فقال مجاعة لخالد :

---

١ – للمؤرخ فيليب حتي رأي خاص في حروب الردة ، فهو يرى ان الاسلام لم تبلغ دعوته، في زمن النبي (ص) . الى كل افراد العرب في الجزيرة ، لسعة البلاد وقلة المواصلات وصعوبتها ، والرؤساء الذين بايعوا عن اقوامهم لم يكونوا يمثلون العرب كلهم ، ولا يستطيعون تبليغ رسالة الاسلام الى كل شعوبهم ، ولذلك اسفرت حروب الردة عن انتشار الاسلام في بلاد لم ترتد اهاليها ، لانهم لم يدخلوا الاسلام من قبل ...

« ان أكثر أهل اليمامة لم يخرجوا لقتالكم ، وإنما قتلتم منهم القليل ، وقد بلغوا منكم ما أرى ، وأنا أصالحك عنهم » .

فصالحه على نصف السبي ، ونصف الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع .

ثم ان خالد توثق منه ، وبعثه إلى أهل اليمامة .

فلما دخل « مجاعة » اليمامة ، أمر الصبيان والنساء ، ومن باليمامة من المشايخ أن يلبسوا السلاح ويقوموا على الحصون ، ففعلوا ذلك ، فلم يشك خالد والمسلمون حين نظروا اليهم أنهم مقاتلة ، فقالوا : لقد صدقنا مجاعة .

وكان ذلك خدعة من مجاعة ورحمة بقومه ، وقد تبين خالد ذلك فيما بعـــد ، ولكنه أمضى الصلح » .

وتذكر كتب التاريخ أن الحديقة التي لجأ اليها مسلمة كانت بأرض« عقرباء » ، وان عدد الذين استشهدوا من المسلمين في معارك اليمامة كان كبيراً جداً ، وكان في مقدمة الشهداء : « زيد بن الخطاب » الذي يقول فيه أخوه عمر بن الخطاب : « ما هبت الصبا من نحو اليمامة إلا خيل إلي أني أشمّ ريح أخي زيد » .

ويذكر المؤرخون أيضاً أن عمر بن الخطاب ما وافق على كتابة القرآن إلا لكثرة من استشهد من القراء في معارك اليمامة .

ويقال ان عدد قتلى بني حنيفة كان أربعة عشر ألفاً .

ولما صالح خالد أهل اليمامة ، اشترط عليهم الدخول في الاسلام، فأسلموا، وولى خالد عليهم « سمرة بن عمرو العنبري » ، وكان ذلك في السنة الثانية عشرة للهجرة .

اليمامة في زمن الأمويين والعباسيين

كانت اليمامة ، في زمن الخلفاء الراشدين الأربعة ، مرتبطة بهم ، يولون عليها من أرادوا .

ولما جاء الامويون ، فالعباسيون ، صاروا يرسلون الولاة الى اليمامة والبحرين من قبل أمرائهم في مكة أو المدينة أو العراق ، وربما جمعوا اليمامة والبحرين لوال واحد .

وذكر كتاب «الأغاني» كثيراً من أسماء ولاة الأمويين والعباسيين في اليمامة،

كالمهاجر بن عبد الله الكلابي – وكان الشاعر جرير صديقاً له – وأبي حفصة، الوالي من قبل مروان ، و« سفيان بن عمرو » ، و « محمد النوفلي » و «القثم بن عباس».
وفي « معجم البلدان » : « العقير باليمامة .. وبها قبر الشيخ ابراهيم بن عربي ، الذي كان والياً على اليمامة في أيام بني أمية . » وذكر معجم الأدباء جملة من أسماء ولاة اليمامة، كعمارة بن حمزة، ومروان بن أبي الجنوب، والمعلى بن طريف الخ..
ذكرنا كل هذا ، ليعلم فساد قول بعضهم .. انهم لم يعثروا على اسم وال واحد أرسله الأمويون الى نجد أو إحدى مقاطعاتها [1] وربما التبس عليهم الأمر من جهة اسم اليمامة ..

بنو الاخيضر

في أواسط القرن الثالث الهجري ظهر بنو الاخيضر في الحجـــاز ، وأعلنوا استقلالهم عن الخلافة العباسية ، ويقول « القرماني » إن المعتز أرسل جيشاً إلى محمد ابن يوسف من بني الاخيضر، فهرب محمد ، وسار إلى « اليمامة » ، فملكها ، وملك أولاده بعده ، فيقال لهم « الاخيضرون وبنو يوسف أيضاً » .
ويقول القلقشندي في صبح الأعشى إن استيلاء بني الاخيضر على اليمامة إنمـــا كان في زمن المستعين ، الخليفة العباسي ، أي قبل سنة ٢٥٥ للهجرة ، وإن ملكهم استمر حتى غلب عليهم القرامطة [2] سنة ٣١٧ .

---

١ – انظر تاريخ الدولة السعودية ، الجزء الاول ، لأمين سعيد .
٢ – في الطبري ان اول ظهور القرامطة ، كان في سواد الكوفة في اواخر القرن الثالث ، وينسبون الى « قرمط » ، وانما سمي كذلك لشدة حمرة عينيه ومعنى قرمط بالنبطية احمر العينين – وأصل اسمه « حمدان » ، وقرمط لقبه ولكنه صار يعرف به ، احدث ديناً غير الاسلام ، وكان يرى السيف على امة محمد.وزعموا ان القرامطة يقولون في أذانهم،بعد الله اكبر:
« أشهد ان ابراهيم رسول الله ، أشهد ان موسى رسول الله ، أشهد ان عيسى رسول الله ، أشهد ان محمداً رسول الله ، اشهد ان احمد بن محمد الحنفية رسول الله . » .
وقيل عن القرامطة اشياء كثيرة ... ولكنها غير ثابتة .
وقد نزعوا الحجر الاسود من الكعبة ، ثم اعادوه اليها بعد فترة من الزمان ... وعظم سلطانهم وخافهم الناس ووصلوا في غزواتهم وحروبهم الى مصر نفسها ...

اليمامة .. وأشراف مكة

تفرقت بلاد نجد واليمامة ، بعد القرن الرابع بين عدد كبير من الامراء والشيوخ ، وكانوا ينبعون اسماء الدول الاسلامية الكبيرة ، التي حلت في السلطة محل الخلفاء العباسيين ، وربما جعلوا امرة بلاد نجد الى امير المدينة ، او امير مكة ، ولما صارت الخلافة الاسلامية الى سلاطين ال عثمان ، اهملوا أمر نجد ، لفقرها وبعدها وصعوبة الوصول اليها ، ولكن شرفاء مكة كانــوا يعتبرون بلاد اليمامة ونجد من مناطق نفوذهم ، وكانوا ياخذون من شيوخها الامــوال ، ويغيرون عليهم اذا امتنعوا عن ادائها ، ويمكننا القول ان الفترة التي تمتد من القرن الرابع حتــى ظهور الدولة السعودية الاولى كانت فترة مضطربة في حياة نجد ، فلم تقم فيها آية امارة قوية ، ممــا هيأ لامراء الاحساء واشراف مكة ان يبسطوا نفوذهم على كثير من امراء نجد المتفرقين ، بــل المتعادين .

ولكن بلاد نجد واليمامة ، على كل حال ، بقيت حرة من النفوذ الاجنبي ، فلم يدخلها جنود الترك ولا غيرهم ، وقد زار الرحالة التركي المعروف « حاجي خليفة » بلاد اليمامة وتعجب مــن امرائها وشيوخها .. لانهم لا يدينون بالولاء للسلطان العثماني .. ولا يعرفونه ! (١)

نجد شركة بين أميرين

ومن اطرف الاخبار ، التي رواها المقريزي في كتابه « السلوك » ، ان امير المدينة المنورة الشريف مقبل بن جماز بن شيحة ، قدم الى القاهرة عام (٧٠٩) ، فولاه الملــك المظفر نصف الامرة بنجد ، يظهر ان امرة نجد كانت شركة بينه وبين اخيه منصور .

ولما قوي شان شرفاء مكة ، بسطوا سلطانهم على ما يستطيعون الوصول اليه مــن الاراضي النجدية ، وكان سلطانهم يتمثل : في جباية الاموال واخذ الهدايا ..

---

(١) حاجي خليفة : « جهان نما » . وصلاح العقاد : الدولة السعودية الاولى .

نجد تحت نفوذ الأشراف

لا نعرف متى بدا نفوذ اشراف مكة يتغلغل في نجد ، ولعله بلغ قمته في عهد الشريف أبي نمي ، الذي يعد من اعظم الامراء الذين تولوا منصب الامارة في مكة .

وينقل ابن بشر من تاريخ العصامي وغيره اخبارا تدلنا على تدخل الاشراف في امور نجد ، وهذا بعض ما يرويه في مواضع مختلفة :

في عام (٩٨٦) ، سار الشريف حسن بن أبي نمي الى نجد ، وحاصر « معكال » ، المعروف في الرياض ، ومعه الجند نحو خمسين الفا ، وطال مقامه فيها ، وقتل فيها رجالا ، ونهب اموالا ، وأسر منهم اناسا من رؤسائهم ، واقاموا في حبسه سنة ثم اطلقهم ، على انهم يعطونه كل سنة ما يرضيه ، وامر فيهم محمد بن فضل .

وفي عام (٩٨٩) ، سار الشريف حسن بن ابي نمي الى ناحية الشرق من نجد ، في جيش كثيف ومدافع كبار ، ففتح مدنا وحصونا تعرف بالبديع والخرج والسلمية واليمامة ، ومواضع في شوامخ الجبال ، ثم عين من رؤسائه من ضبطها ، على امور اقترحها واشترطها ، وعاد راجعا ..

وفي عام (١٠١١) ، ظهر الشريف ابو طالب على نجد ،

وفي عام (١٠١٥) ، ظهر الشريف محسن ، وقتل أهل (القصب) ، ونهبهم ، وفعل الافاعيل العظيمة ..

وفي عام (١٠٦٩) ظهر الشريف زيد بن محسن على نجد ، ونزل قرى التويم ، وقدم في سدير واخر ، واخذ واعطى ..

وفي عام ١٠٨٨ ظهر محمد الحارث الى نجد وقتل غانم بن جاسر .

وفي عام ١٠٩٦ (او ١٠٩٧) : « ظهر احمد بن زيد على نجد ونزل عنيزة وفعل باهلها ما فعل) .

وفي عام (١١٠٧) ظهر سعد بن زيد الى نجد ونزل بلد اشيقر المعروف وحاصر اهلها وطلب ان يخرج اليه الشيخ حسن .. ابا حسين .. ومحمد القصير ، فخرجا اليه فحبسهما .

وفي عام (١١٠٩) ظهر سرور بن زيد على نجد ونزل روضة سدير وفعل فيها ما فعل ثم رحل منها ونزل قرى جلاجل وربط ماضي بن جاسر امير الروضة ثم نزل الغاط .

كل هذه النقول التي اخذناها من ابن بشر ، وهي في (العصامي) وغيره ، تدلنا على ان اشراف مكة لم ينقطعوا من القرن العاشر الى القرن الثاني عشر عن التدخل في شؤون نجد ، وغزو بعض بلدانها ، ونهبها ، وحبس طائفة من ابنائها ، وقد تجاوزت حملاتهم منطقة اليمامة الى غيرها من اقاليم نجد ، ونلاحظ ، في كثير من الاسف ، ان سيرة الاشراف مع اهل نجد لم تكن حسنة ، وانما كانت نهبا وتقتيلا واذلالا .

ضعف شرفاء مكة وتخاذلهم

لم يتدخل الشرفاء ، ابتداء من القرن الثاني عشر ، في امور نجد ، وانقطعت عن تلك

المنطقة غزواتهم ورحلاتهم .. ولم يكن ذلك تعففا منهم . ، ولكنهم كانوا في شغل شاغل من منازعاتهم او « حروبهم » ، التي كانت تقوم بين الاخ واخيه ، والعم وابن اخيه ، وتهدر فيها الدماء ، وتستحل الحرمات ، فكان (معدل) ولاية الامير على مكة سنة او سنتين ، لكثرة الاغتيال ، والغدر ، والخلاف !

يذكر (جيرالد ده غوري) في كتابه (حكام مكة) قصة الشريف مسعود (وهو الذي حج ربيعة امير الدرعية ، واخوه مقرن ، جد آل سعود ، في زمانه ، وكان السيل قد غمر مكة وهدم الكعبة قبل ذلك بقليل) ، قال ما ترجمته :

« في عام ١٦٣٠ م. وصل مكة ، حاكم اليمن الجديد ، قونصوه باشا ، في طريقه الى اليمن على راس جيش كبير ، وكان تلقى امرا بمعاقبة شريف مكة ، الشريف احمد ، بسبب قتله مفتي مكة !

ولما بلغ الشريف مسعود بن ادريس بن حسن قرب وصوله ، خاف من انتقام الشريف احمد منه ، كما فعل مع غيره ، فهرب الى ينبع .

وذهب الشريف احمد للقاء قونصوه باشا ومعه ثلاثة من اقربائه الشرفاء ، فادخلوا على معسكر الباشا وصدحت لهم الموسيقى ، ودعوا الى لعب الشطرنج ، وفي المساء ، فوجئوا .. بدخول من قطع راس الشريف احمد ، ثم قيل للباقين : اذهبوا الى مكة وقصوا على الناس ما رايتم !..

وذهبوا الى مكة فوجدوا أن الشريف مسعود قد اصبح حاكما على مكة !

ويقول المؤلف ، في مكان آخر :

ارسل السلطان مراد الرابع مهندسا هو (رضوان آغا) ، الخصي ، لاصلاح الحرم ، ولما مات مسعود ، تولى رضوان آغا الحكم في مكة ، ريثما يتفق الشرفاء على اختيار امير منهم خلفا لمسعود !

تدخل السلطان والباشا في أمور الحجاز

ويظهر ان السلطان العثماني كان يوكل احيانا امر الاشراف على حكم الحجاز الى واليه على مصر ، فكان يعزل ويولي من يشاء ، باسم السلطان ، ويذكر لنا (العصامي) أن باشا مصر ارسل كتابا الى مكة ، بولاية الشريف احمد بن غالب ، وكان امير مكة يومئذ الشريف سعيد ، ففوجيء بذلك ، واستنكره ، وقال :

(ان كان بيد احمد بن غالب .. امر سلطاني ، فلياتوا به ونحن مطيعون للامر السلطاني ، وان كان غير سلطاني فحكم الباشا على مصر وصعيدها ، يعزل فيه ويولي من شاء وما دون مكة الا السيف !)

وكان جزاء سعيد انهم قتلوه ، وولوا الشريف احمد مكانه قبل ان يدفنوه .

منصب الشرافة !

ويدل المرسوم الخاقاني الذي يرسل الى الشريف على ان مهمتــه اصبحت قاصرة علــى السهر على راحة الحجاج وحماية الامن من عدوان العربان ، وهذا شيء مما في المراسيم السلطانية المتضمنة ولاية الشرفاء :

« قد انعمنا بولاية الحرمين الشريفين عليكم واسندنا حماية المحلين المنيفين اليكم ، والحث على القيام بواجب السادة الاشراف .. والوصية بالعلماء والصلحاء والمجاورين وحماية الحجاج والزوار والمسافرين ، والالتفات الى تامين الطرق والبلدان وقمع اشقياء العربان .. »

ثلاثون شريفا خلال قرن واحد !

لقد تعاقب على امارة مكة ، خلال القرن الثاني عشر وحده ، نحو ثلاثين شريفا ، لــم ينعم واحد منهم بالاستقرار ، وتقول « جاكلين بيرين » : (١)

« احسن (نيبوهر) تصوير الحالة المؤسفة التي آلت اليها المدينتان المقدستان ، تلــك الحالة التي اثارت سخط محمد بن عبد الوهاب ودفعته الى الاقدام على الاصلاح ، وهــو يقول ان شريف مكة.. فقد سلطته الروحية في نظر المسلمين .. وبما أن المدعين الشرعيين لحكــم البلدة ، وهم فرع من سلالة النبي .. المتحدرة من الحسن .. يبلغ عددهم ثلاثمائــة ، غــدت السلطة مثار نزاع لا نهاية له ، يفرض اقواهم على الآخرين ، ويتدخل السلطان التركي احيانــا في النزاع ليجلس على العرش احد الاخصام ، ولا يتورع هؤلاء الامراء المتنازعون عن ان يصلوا بمعاركهم الى قلب الاماكن المقدسة ، مخالفين بذلك نصوص القرآن » .

شرفاء ضعفاء ، ولكنهم يمنعون الوهابيين من الحج !

تلك حالة شرفاء مكة ، في اول ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ما كانوا قادرين علــى اي عمل ضد نجد او غيرها من البلدان ، لضعفهم وتخاذلهم وخوف بعضهم من بعض ، ولكــن هذا لم يمنعهم من اتخاذ « تدابير سلبية » في مكة نفسها ضد الوهابيين ، فقــد اعتبروهــم خصوما للدين .. ومنعوهم من الحج !

ولعلهم كانوا يظنون انهم في مأمن تام من انتقام الوهابيين ، لضعفهم وبعدهم وصعوبــة وصولهم الى مكة .

---

(١) انظر كتابها « اكتشاف جزيرة العرب » ترجمـــة الاستاذ قــدري القلعجي .